مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الفَجْرِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الفجر

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الفجر

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤ ﴾

ابتدأت سورة الفجر بما أقسم الله تعالى به من الأقسام التي تبين عظمة دلائل قدرته فيما صنع وخلق وقَدَّر من الأوقات والعبادات والخلق. فقال تعالى ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بزمن ووقت الفجر، الذي هو وقت ابتداء اضمحلال وانفصال ظلام الليل وأول دخول نور النهار. وفي القسم بهذا الوقت لفت الانتباه إلى عظيم حال الانفصام والانفصال الدقيق الذي يحصل بهدوء، وتدرج عظيم بحكمته وقدرته جَلَّ جلاله. وفيه إشارة إلى وقت صلاة الفجر، وعظمة توقيتها في هذا الزمن الذي يجمع ما بين انتهاء الليل وابتداء دخول نور النهار.

ثم بعد هذا القسم العظيم بالفجر، يُقسم سبحانه وتعالى قسماً ثانياً، معطوفاً على الأول. فقال تعالى ﴿ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴾ وهي الليالي العشر الأولى من شهر ذي الحجة. قال ابن عباس: إن الليالي العشر التي أقسم الله تعالى بها، هي ليالي العشر الأولِ من ذي الحجة[١] مما يبين فضل هذه الليالي على غيرها من ليالي السنة، وفيها ليلة النحر. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وإنما نُكِّرَت ولم تُعَرَّف لفضيلتها على غيرها[٢] مما يبين ويفيد أن لله تعالى التعظيم لما يشاء، من الأزمان والأوقات والأشياء، والاصطفاء للأنبياء والمرسلين، فليس لأحد الاعتراض على ما يخصه الله تعالى من الخلق بالاصطفاء والتعظيم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٥/٢٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧/٢٠)

ثم تلاه القسم الثالث والرابع: وهو القسم بكل ما كان ثانياً لغيره، أو فرداً لوحده. فقال تعالى ﴿ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴾ فالشفع هو ما يكون ثانياً لغيره، والوتر هو الشيء الْمُفرَد، أو المنفرد لوحده. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الشفع والوتر يعمان كل الأشياء، شفعها ووترها، وقيل شفع الليالي ووترها[١] وقيل: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. وقيل غير ذلك. وسياق البيان من الله تعالى يدل على العموم، لأنه لم يخص شفعاً ولا وتراً معيناً ومحدداً، ليستوعب البيان الكريم كل شفع ووتر. وهذا من رحابة دلائل القَسَم والمقسوم به.

ثم أقسم الله تعالى قسماً خامساً بالليل إذا ذهب وسار، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ والليل إذا ذهب حال إدباره وإذا عاد حال إقباله. فقد قيل: إذا يسري ذاهباً، قاله الجمهور، وقيل: إذا يسري: مقبلاً[٢] فجمعت الدلالة للسري حال الإقبال، وحال الإدبار. وهذا من سعة الدلالة ﴿ إِذَا يَسۡرِ ﴾ التي استوفت حركة الليل عند قدومه، وحركة الليل عند رحيله، وهي من بلاغة البيان في القرآن العظيم، التي من مميزاته فيها: تعدد الأوجه التي تستوعب وتستوفي المراد.

ثم يبين سبحانه وتعالى عظيم ما أقسم به لأهل العقول الحصيفة. فقال جَلَّ جلاله ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ أليس في ذلك البيان مما أقسم الله تعالى به دلائل كافية على توحيده، وعظيم خلقه وتدبيره ﴿ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ أي: لذي عقل. وقد سَمَّى الله تعالى العقل بالحجر، لأنه يمنع ويحجر صاحبه عما لا خير فيه له.

وقد ورد التوجيه الكريم بأسلوب السؤال التقريري الذي يقرر فيه سبحانه وتعالى أن فيما أقسم به كمال الكفاية لأولي الألباب؛ بأن يعتبروا بها، ويقروا بتوحيد الله تعالى، ووجوب طاعته، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يأمرهم به، وينهاهم عنه. ومن دقائق البيان تنكير ﴿ قَسَمٞ ﴾ لإفادة التعظيم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وتنكير ﴿ قَسَمٞ ﴾ للتعظيم، أي: أنه قسم كاف ومقنع للمُقْسم له، إذا كان عاقلاً يتدبر بعقله[٣] وفيه عتاب لمن لم يعقل، ولم يستخدم فكره في بيان الله تعالى، الذي أقسم به.

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى بما سبق من القسم، وأن فيه الكفاية الدلالية لأولي الألباب بأن يعتبروا بها، ويُقِرُّوا بتوحيد الله تعالى، وطاعته، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يأمرهم به، وينهاهم عنه.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٣٣/٥)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٠/٨)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٣٩/١٢)

ينتقل البيان الجليل بعد ذلك إلى حال من كذب وأبى، من خلال ما سبق من حال الأمم التي كذبت بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام. فقال تعالى ﴿ **أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ ألم تر أيها الْمُخَاطَب ببصيرتك كيف أن ربك قد أهلك قوم عاد. أولئك الذين تمردوا وجحدوا آيات الله عَزَّ وجل وحججه وبراهينه.

وقد بدأ البيان الكريم بلفت الانتباه للحقائق الواعظة بأسلوب السؤال الذي يقرر حقيقتهم، ويكشفها بتحليل دقيق لواقعهم، بأنهم في عنادهم مشابهين ومماثلين لقوم عاد. فقال تعالى ﴿ **أَلَمۡ تَرَ** ﴾ وهو سؤال استنكار وتقبيح لحال أولئك الذين لم يتعظوا بغيرهم. ألم تتأمل؟ ﴿ **أَلَمۡ تَرَ** ﴾ وهو تأمل يفيد التعجب والاستنكار من حالهم، لِيُظهر به سبحانه وتعالى حالهم من خلال صيغة التعجب لسوء اعتبارهم من غيرهم، وليكشف به عن حالهم، وتعريتهم من عدم الاعتبار. وهو سؤال استنكار ولوم لحالهم وواقعهم، وتقبيح لمسلكهم في الكفر.

ثم أخذ سبحانه وتعالى يصف لهم أولئك القوم. فقال الله جَلَّ جلاله ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ** ﴾ إنها إرَم التي اشتهرت برفع أعمدة منازلهم. لما كان منهم من طول القامة، مع القوة والشدة. وهم قوم عاد التي كانت تسكن الأحقاف، في جنوب الجزيرة العربية. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهؤلاء عاد الأولى. وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قاله ابن إسحاق. وهم الذين بعث الله تعالى فيهم رسوله هودا عليه الصلاة والسلام. فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله تعالى من بين أظهرهم، ومن آمن معه، وأهلكهم بريح صرصر عاتية[١] وقد أفاد الوصف لها بأنها ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ** ﴾ بأنها اشتهرت بهذا الوصف. وقد شمل هذا الوصف جميع الأحوال التي كانوا عليها. فقد ذكر أهل التفسير أقوالاً متعددة: أحدها: أنهم كانوا أهل عمد. والثاني: ذات الطول. يُقال رجل مُعَمَّد إذا كان طويلاً. والثالث: ذات القوة والشدة. والرابع: ذات البناء المحكم بالعماد[٢] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والعماد: عود طويل، يُقام عليه البيت، يُركز في الأرض، وتُقام عليه أثواب الخيمة، أو القبة[٣] فشملت دلالة ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ** ﴾ الطول والارتفاع والانتقال، فهم طوال وشداد وأقوياء في أجسامهم، وكذلك علو منازلهم، فقد كانت ذات ارتفاع، بما تعتمد عليه من الأعمدة الطويلة. لتتناسب مع أطوالهم. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أنه قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ، ثم يعودون ويرجعون إلى منازلهم[٤] فشملت جميع ما كانوا عليه من الوصف. ليدل على عمق

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤١/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٢/٨)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٤١/١٢)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣١/٢٠)

دلالة البيان في القرآن الكريم، ليستوعب بالكلمة وبالسياق الواحد جميع المراد. من غير حاجة إلى الإسهاب والتكرار. مما يظهر به الإعجاز البياني، الذي يُثبت أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى.

ثم يُثبت الله تعالى تلك الدلالات بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ فلم يُخلَق مثلها في القوة والشدة والعِظم، وفي الحال التي كانوا عليها. فمع أنها كانت ذات قوة أشد ممن بعث الله تعالى فيهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، فقد أهلكهم، ولم تُغن عنهم قوتهم شيئاً، إذ لم تَرُدَّ عنهم عذاب الله عَزَّ وجل. وفي هذا تذكير للاعتبار بما شاع عندهم من خبر قوم عاد، حتى أصبح لا ينكره ولا يستغربه أحد.

ثم ينتقل البيان الواعظ من الله تعالى إلى شأن قوم ثمود. فقال الله تبارك وتعالى عنهم ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ وثمود الذين هم قوم صالح عليه الصلاة والسلام ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ﴾ أي: وقوم ثمود الذين قطعوا ﴿ ٱلصَّخْرَ ﴾ وحملوه، وأتوا به ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾ والوادي هو الأرض الكبيرة المفتوحة، التي تكون بين مجموعة من الجبال. وقد ورد في سورة الشعراء قوله تعالى عنهم ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴾ فأقدَرَكم ربكم سبحانه وتعالى على نحت الجبال حتى تمكنتم من اتخاذها مساكن لكم. قال مجاهد رحمه الله تعالى: جابوا الجبال، فجعلوها بيوتاً[١] فإن ربكم هو الذي أقدركم عليها بما وهبكم من الفكر، والاستدلال على اتخاذها بيوتاً لكم. فبالرغم مما كانوا عليه من القوة والشدة فقد أهلكهم الله تعالى على كفرهم. فاعتبروا أيها الناس، فإنه خير لكم. وهذا انذار من الله تعالى بالأحداث التي حدثت للأمم. مما يدل على أهميتها في المواعظ.

ثم انتقل بهم البيان الواعظ من الله تعالى إلى قصة فرعون. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ وفرعون ﴿ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ أي: صاحب القوة المشتملة على عساكره من الجنود، الذين هم لملكه كالأوتاد التي تنشد بها الخيام، والأهرام التي بناها كالجبال في ضخامتها. ولكنهم اتصفوا بالطغيان، فقال الله تعالى عنهم ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أي: تمردوا على الحق الذي جاءهم به موسى عليه الصلاة والسلام، وطغوا على بني إسرائيل، يقتلون أولادهم، ويستحيون نساءهم، فيتركوهن للخدمة الشاقة. بل وتمادوا ﴿ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ أي: بالغوا في الفساد. ليشمل أنواعه ومفرداته، من الجور والأذى، والبطش والقتل، والتعالي. فقد جَرَّأهم الطغيان على الفساد.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٩/٢٤)

ومن دقائق البيان تعميم الطغيان، وكذلك الفساد، ليعم جميع أنواعه ومفرداته، فقد بالغ فرعون وقومه في ذلك مبلغاً حتى لاحقوا موسى عليه الصلاة والسلام، ومن معه من المؤمنين. فأهلكهم الله تعالى بالغرق. بما يفيد فلستم أشد من هؤلاء القوم، وقد أهلكهم الله تعالى، واستدرجهم إلى البحر، فغشيهم الماء، فماتوا بالغرق. فاعتبروا أيها الناس بغيركم. فهي موعظة بالأحداث الماضية التي تستوجب طاعة ربكم تبارك وتعالى، ومتابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله جَلَّ جلاله بعذابه لعموم تلك الأمم على الرغم من قوتها، التي لم تنفعها. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ فأفرغ الله تعالى بقوته عليهم ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي: نصيباً من العذاب. قال الفراء رحمه الله تعالى: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب[١] والسوط يشمل الشدة، وقوة الأثر في النفس والبدن، وسرعة الإصابة. بما يفيد المبالغة في قوة وشدة العذاب وسرعته، ومباغتته لهم.

ثم يزداد الوعيد بعد الوعظ من الله العزيز الحكيم، فقال الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ فإن من قدرة ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وعظيم سلطانه، وقهره لمن عصاه أنه لهم ﴿ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ فيرصد أعمالهم، وجُرمهم، ثم يجازيهم بما يستحقون من النكاية بأشد العقاب. وقد أكد ذلك البيان بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ثم عين وحدد من يخاطبه، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ إن ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم هو لا غيره لهؤلاء المجرمين ﴿ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ يترصدهم بالعذاب والجزاء. بما يفيد التخويف والإنذار لمن كذبوه عليه الصلاة والسلام. فإن الذي فعل ما فعل بتلك الأمم السابقة هو الذي أرسل إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم. فهو رب هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فاحذروا أن يعاقبكم بمثل ما عاقب به من سبق من الأمم الكافرة. وبما يفيد شدة التحذير لمن خالف رسوله صلى الله عليه وسلم وعاداه. فاعتبروا وانتبهوا أيها العباد لمصالحكم في الآخرة. وهذا الوعظ الشديد هو من رحمة الله تعالى بعباده، حتى يتوبوا ويعودوا إلى رشدهم، ويتجنبوا العقاب، ويدخلون الجنة بسلام. مما يبين عظيم رحمة الله تعالى بالعباد.

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٣٣)

ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا
يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾
وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد ما سبق من البيان عن تلك الأقوام الكافرة التي نالها من الله تعالى أشد العقاب. ينتقل البيان الكريم إلى تحليل وتفسير طبيعة الإنسان حتى يتنبه لنفسه مما هو عليه، فيعالج شأنه بما أرشده الله تبارك وتعالى إليه. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ فإن الإنسان إذا ما ابتلاه واختبره ربه بالنعمة، فأكرمه بالسعة فيها، فإنه يعتقد أنه محبوب ومُكَرَّمٌ من ربه عَزَّ وجل ﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ إن ربي أكرمني بهذا العطاء، وأرجع وأعاد تلك التوسعة إلى كرامته ومنزلته عند ربه. بينما هو ابتلاء كما سماه الله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ فقد فسر الإنسان التوسعة عليه بما يخالف الحقيقة الربانية. فليس هو من باب الكرامة والحظوة. بل من باب الابتلاء. ليعلم ويتعلم منه العباد أن عطاء الله تعالى هو للابتلاء، كما أن تقدير الرزق وقلته على أهل الطاعة هو من باب الابتلاء كذلك، فلا يعني ذلك عدم محبته عَزَّ وجل لهم. ليعرف الإنسان بهذا البيان حكمة العطاء والتقدير في الأرزاق، بأنه من باب الابتلاء، وليس عن سخط ولا عن رضى. وفي هذا تصحيح للمفاهيم. ليتبين بالعطاء هل يقوم بالواجب فيه، من الحمد والشكر اعتقاداً، وقولاً، وطاعة وامتثالاً لربه الذي أكرمه، فيكرم اليتيم، ويعطف على المسكين أو أنه يتعالى ويتباهى بما هو فيه من النعمة.

ثم يبين ويوضح تبارك وتعالى المسلك والفهم الآخر عند الإنسان حال القلة في الرزق. فيقول اللهُ تبارك وتعالى ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ وأما في حالة الابتلاء له بتقدير الرزق، وعدم توسعته، فإنه يعتقد أنه من باب الإهانة له، وليس من باب الابتلاء ﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ والحقيقة أن الله تعالى لم يهن أحداً بقلة الرزق، فقد يقل عند الأصفياء من عباده. ويكثر عند الطغاة من عباده. ولكن للابتلاء كما قال جَلَّ جلاله ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴾ فأخبر جَلَّ جلاله بأنه من باب الابتلاء، أيصبر هذا الإنسان، ويسأل الله تعالى، أو أن يتذمَّر مما هو فيه. مما يعلم جنس الإنسان كيف ينظرون لأحوالهم وأحوال غيرهم. وأن يكون ذلك عوناً لهم على طاعته سبحانه وتعالى، وألا يزدري الغني الفقير، وألا

يحسد الفقير الغني، وألا يتعالى الغني بما عنده، وألا يتضجر الفقير بما هو فيه. فإن لله تعالى عظيم الحكمة في بسط الرزق وتقديره.

ثم يخبر الله تعالى بما يصحح به ذلك الحسبان الخاطئ، فيقول تبارك وتعالى ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ إن المشكلة متعلقة بكم أيها الناس ﴿كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما فسرتموه ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ فإنكم يا أهل المال واليسر لا تكرمون الصغير اليتيم الذي فقد أباه، بأن تغنوه عن المسألة، وتقومون برعايته. مما يبين أهمية العناية باليتيم ليدوم ويستمر الخير. ومما يفيد كذلك أن لليتيم حق في مال الغني، كما يفيد عناية الله تعالى باليتيم، حتى جعل له حق، وجعله سبباً في سعة الرزق.

ثم أخبر تبارك وتعالى بحال وتقصير الإنسان أيضاً على المسكين حالما يكون في يسر من الرزق، فقال الله تعالى ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ أي: ولا يأمر بعضكم بعضاً بإطعام المساكين من الناس. وهم أهل الفقر والحاجة. ثم يبين تبارك وتعالى أن من الطبائع البشرية التي يهذبها الإيمان ومنهج الإسلام أنهم يتهافتون على الميراث. فقال الله تعالى ﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾ وتتهافتون على أكل الميراث ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾ أكلاً شديداً، من أي جهة يحصل بها عليه، فلا يبالي أهو من حرام أو حلال. فيأكلون أموال اليتامى، والنساء، بشدة وشراهة. فلا يبالون في ذلك. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: التراث: الميراث. وأفادت ﴿لَّمّٗا ﴾ من قولك: لممت بالشيء إذا جمعته. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هو مال اليتامى[1] وفي هذا تحذير، وإرشاد تَبَصُّر في حال النفس، وتعديل وتصحيح الفهم الذي يتبعه سلامة العمل.

ومن صفاتهم شدة محبتهم للمال. فقال تعالى ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ فتحبون المال ﴿ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ أي: كثيراً. ومن ذلك قولهم: جَمَّ الماء. أي: كثر. فتحبون المال حباً كثيراً، قد بالغ فيه الإنسان إلى حد أنه يمنع اليتيم والمسكين مما عنده، ويسعى لتحصيله بأي وسيلة، ومن ذلك الميراث الذي هو مخصوص للورثة بحسب تقسيم الله تعالى لهم. وفي هذا زجر وتنبيه للإنسان بأن يعرف الخصائص البشرية، وأن يهذبها بالإيمان وبضوابط الشريعة، ومخافة الله تعالى. فإن رجاء ما عند الله تعالى، والخوف منه يضبط تصرفات وسلوك الإنسان في كل أموره. مما يبين عظمة شريعة الله تعالى، ومنزلة ومكانة الإيمان، وأثره على تصرفات الإنسان وتعامله مع غيره في كل شيء. فنحمد الله تعالى على دينه، ونسأله التوفيق لما يحبه ويرضاه، والسداد في القول والعمل.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٧/٨)

ثم يزجر وينهى تبارك وتعالى عما سبق من تلك الحالات الإنسانية المخالفة لدينه وشريعته التي سبق بيانها وتحليلها وتفسيرها. فقال الله تعالى ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ كلا، ليس الأمر كما هو في نفوسكم من التعامل الذي لا يراعي الحقوق والواجبات، والانتهاء عن المحرمات، فإن أمامكم يوم القيامة، حين يتم دك الأرض والجبال دكاً، حتى تصبح ممهدة لا عوج فيها، فيقوم الناس حينها من قبورهم للحساب ثم الجزاء.

وقد بدأ البيان الكريم بحرف ﴿ كَلَّآ ﴾ الذي أفاد: أنه ليس الأمر كما أنتم عليه، من حرصكم على الدنيا، وجمعكم لها، وعدم إكرامكم لليتيم، وعدم حضكم على إطعام المسكين، وأكلكم للتراث الذي هو مال غيركم، نتيجة شدة حبكم للمال حباً شديداً. ثم بعد هذا التعليم بالنهي والزجر ينتقل بهم البيان الكريم إلى التحذير من يوم القيامة، بما يكون من حال الأرض في تغيرها. فقال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ إن الشأن والأمر هو أن تجتنبوا تلك المسالك الظالمة، فلا تكونوا كذلك، فإنه إذا قامت القيامة ضاعت عليكم الدنيا، وفقدتموها، وخسرتم ما كان يجب عليكم أن تكونوا عليه فيها، من طاعة ربكم، ومن إكرام اليتيم، وإطعام المسكين، وطلب المال بما شرع ربكم لكم. وقد ذكر تبارك وتعالى هيئة الأرض يوم القيامة، بأنها تندك دكاً، بتكرار تحريكها واهتزازها حتى يتهشم ما علا وارتفع منها، وذهب وزال كل مشرف ومرتفع فيها.

وقد ورد البيان بأسلوب التأكيد. حيث تكرر الدك ثلاث مرات: الأول: فعل الدك ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ والثاني والثالث للتأكيد الشديد، فقال الله سبحانه وتعالى ﴿ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ بما يفيد حصول التسوية التي لا ريب ولا شك فيها. مما يفيد شدة الإنذار والزجر، بما يُوجب طاعة الله تعالى، بمتابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يصف تبارك وتعالى شيئاً من حال يوم القيامة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ فحين تندك الأرض والجبال، يجيء ويأتي الله ربكم للقضاء بين عباده في ظلل من الغمام، ومعه الملائكة الكرام في صفوف متتالية. كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾

ثم يُخبر الله تعالى بشأن جهنم ومجيئها. فقال عَزَّ جل ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ وفي يوم القيامة يأتي الله تعالى بجهنم، تقودها الملائكة. وحينها ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أي: يستعيد الإنسان جميع ما كان منه من الخير والشر، ومن الحق والباطل. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ فكيف له أن يستعيد ما فاته؟ فقد فات الانتفاع بهذا التذكر، وبهذا الاسترجاع لشأن الدنيا، فحينها يندم الكافر على ما كان من تكذيبه بيوم القيامة، ويتحسر المقصر والعاصي. ولكنها الساعة التي لا ينتفع فيها بالتذكر. مما يفيد أن الانتفاع بالتذكر في معالجة النفس هو في الدنيا. فانتفعوا في دنياكم بالمحاسبة والتذكر خير لكم أيها العباد. قبل أن يرى الإنسان يوم القيامة، ويعيشها، ولا يستطيع استدراك ما فاته.

فإنه في يوم القيامة يتمنى الإنسان لو أنه قدم خيراً لآخرته. فقال تعالى محذراً وواعظاً عباده ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ حينها يتحسر الإنسان، ويتمنى أن قدم خيراً لنفسه. فيعلن لأمنيته، بالتحسر والندامة. يا ليت أني قدمت خيراً لحياتي في الآخرة، بطاعة ربي، والامتثال له عَزَّ وجل. بل اعتبرها في تلك اللحظة هي الحياة فقط ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ فعزل عنها الحياة الدنيا، وأفردها بالذكر، بقوله ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ مما يبين أن الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية. فيا أيها العباد: اعملوا لها، قبل أن تتحسروا وتندموا. وهذا من عظيم الوعظ من الله تعالى، رحمة بالعباد، فأظهر لهم حقائق الآخرة وكأنهم يرونها ويعيشونها.

ثم يزداد الوعظ من الله تعالى ببيان عذاب الآخرة. فقال الله تعالى ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ ففي ذلك الوقت ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله تعالى لمن عصاه، بإهمال ذلك اليوم، والتغافل عن العمل للآخرة. ثم يصف الله تعالى حال من ترك العمل لهذا اليوم بكفره وإنكاره، فقال عَزَّ وجل: فإنه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فليس أحد أشد توثيقاً وربطاً لمن كفر في ذلك الوقت، فإنهم يُربَطُون ويُوثقون بسلاسل من الحديد الملتهب. وبما يفيد تحذير العباد من المعصية، حتى لا يقعوا في شيء من ذلك.

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العظيم إلى بيان حال أهل الإيمان. فقال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ يا أيتها النفس التي سكنت وثبتت، فاطمأنت من أن اعذاب الله تعالى لن ينالها ولن يمسها بسبب ما قدمت في الحياة الدنيا ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ فعودي أيتها النفس إلى إكرام ربك وثوابه،

وأنت ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أي: راضية في ذاتها بما كان منها، وبما وجدت من النعيم المقيم. وكذلك فإنها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ بما أكرمها به ربها، فهي راضية عن ربها، وراضية بما أكرمها به سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان الكريم وعظمته أن استهل الكلام مع النفوس المطمئنة بالنداء ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته الترحيب والتطمين، وقد تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الاطمئنان ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ التي هي من أرقى درجات السعادة، والبهجة والسرور، فسماها الله تعالى بما هي فيه من الحال. وهذا من عظيم كرم وتكريم الله تعالى لهم.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم تناول النداء بعد ذلك، بيان التكريم. فقال الله تعالى ﴿ ٱرْجِعِىٓ ﴾ أي: عودي إلى إكرام ربك لك، وقد أسند عودتهم له تبارك وتعالى ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ الذي خلقك، ووعدك بما وعد من الجنة. وليكن حال هذه النفس المؤمنة ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ راضية في نفسها، ومرضية من ربها بما أكرمها. مما يبين عظيم السعادة التي هي فيه. لأن الْمُرضِي هو الله تعالى، وترضيته للعبد ستكون بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال أحد. ومن دقائق البيان أن وصف الله تعالى المجيء بالرجوع. والرجوع إنما يكون للمكان الذي كان فيه الراجع. وفي هذا تذكير بما كان عليه أبو البشرية آدم عندما كان في الجنة. فعودي إلى الأصل الذي كان فيه أبوكم آدم عليه السلام.

فيقول لها الله تبارك وتعالى ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴾ فادخلي في جمل عبادي المكرمين، المماثلين لك في الطمأنينة والرضى. ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ وادخلي معهم الجنة. وقد أسند سبحانه وتعالى الجنة له عَزَّ وجل، زيادة في التكريم، وإظهار الاختصاص، بأنها جنة من ربكم لكم يا أصحاب النفوس المطمئنة. اللهم اجعلنا وإخواننا المسلمين منهم يا رب العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الفجر. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.